

تطور المجتمع المدني الفلسطيني

محمد خالد الأزهرى

في غمرة التعقيدات التي طرحتها تطورات الصراع على أرض فلسطين، ومن حولها، ظلّ بعض الجوانب المتعلقة بالقضية الفلسطينية، حتى وقت قريب، بعيداً نسبياً من الانشغالات البحثية. ولم يكن ذلك، على الأرجح، نتيجة لضآلة أهمية هذه الجوانب، وإنما الى الطابع الهادئ الذي اكتنف بروزها وتطورها، واتساع المساحة الزمانية، والمكانية، التي حوتها، وتفاعلت في اطارها، ويأتي في طليعة الحقول البحثية التي تحتاج الى مزيد من التجوّل على انحاءها، على الصعيدين، التجريدي والتطبيقي، الحقل الخاص بالمجتمع المدني الفلسطيني، الذي نوليه، في هذا الموضوع، بعض ما يستحق من اهتمام، فنطرح أفكاراً وأسئلة تدور حول جوانبه البنائية والوظيفية. وأغلب الظن أنها أفكار أولية، تتطلّع الى ما هو أكثر من التأصيل.

من الفرضيات التي يقوم عليها هذا العرض ان تداعيات الصراع الاسرائيلي - العربي، بعامّة، والشقّ المتعلّق بالمواجهة الاسرائيلية - الفلسطينية، بخاصة، قد أسفرت عن نشوء مجتمع مدني فلسطيني، له معالنه البارزة في الحياة الفلسطينية، سواء داخل الجزء المحتل من فلسطين العام ١٩٦٧، أو الجزء المحتل منذ العام ١٩٤٨، وكذا بين فلسطيني الشتات؛ وان هذا المجتمع يشيد آليات حركته الذاتية، اجتماعياً واقتصادياً وفكرياً، وله خبرته المتراكمة في التسيير الذاتي، على نحو قد تفتقر اليه مجتمعات نامية كثيرة، حصلت على استقلالها الوطني (السياسي) منذ وقت ليس بالقصير. كذلك يمكن الزعم ان الانتفاضة الكبرى كان لها فضل تعزيز البنى الفلسطينية المختلفة، وبيان المدى الذي بلغتّه الحقيقة الفلسطينية تحت الاحتلال، وعلى الرغم منه؛ وان إعادة أوضاع هذه البنى الى ما كانت عليه في سنوات النكبة الاولى، أو حتى قبل العام ١٩٦٧، تبدو مسألة شبيهة مستحيلة، وذلك بعد ان ترسّخت قيّم جديدة في جنبات هذا المجتمع، وبعد ان تمّت إعادة احياء قيّم أخرى أصيلة فيه.

مفهوم المجتمع المدني

المجتمع المدني، في احد تعريفاته، مفهوم يعبر عن التكوينات الاهلية التي لا تدخل الدولة (السلطة الحاكمة) طرفاً مباشراً فيها، عموماً. وضمن هذه التكوينات، تأتي العائلة والنقابات والمؤسسات الدينية وجماعات المصالح وجماعات الضغط والجمعيات الطوعية وظاهرة الرأي العام، ونحو ذلك^(١). ولعلّ أقرب تسمية لهذا المجتمع، في إطار التراث الحضاري العربي، هو مفهوم «المجتمع الأهلي»، الذي يشير الى ما كان لدى «الاهل»، او العشائر والقبائل، من تجمّعات وسيطة بين الحاكم والمحكوم.